دور حروف المعاني في توجيه المتشابه اللفظي في الخطاب القرآني

أ.طه الأمين بودانة

جامعة الأغواط-الجزائر

تاريخ الإرسال:26-09-2017 تاريخ القبول:23-01-2018 تاريخ النشر:01-02-2019

ملخص باللغة العربية: نسعى في هذه الدراسة إلى اكتشاف الدور المحوري الذي تلعبه حروف المعاني في توجيه معاني الآيات المتشابهة لفظا في القرآن الكريم؛ من خلال دراسة أبرز النماذج التي يوجد فيها اختلاف في استخدام حروف المعاني. سوف تتطلب هذه الدراسة أولا تحديد معنى الحرف، ثم تحديد خصائص حروف المعاني، بالإضافة إلى تعريف مفهوم "المتشابه اللفظي في القرآن الكريم"، والأكيد أن هذه الدراسة لن تكون مسحًا إحصائيًا لجميع ما ورد في القرآن الكريم من المتشابه اللفظي، ولكنها ستقتصر على أهم النماذج التي لفتت انتباه العلماء في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: دور؛ حروف؛ المعاني؛ توجيه؛ المتشابه؛ الخطاب؛ القرآني.

Abstract: In this study we seek to discover the pivotal role played by the letters of meanings in the direction of the meanings of similar verses in the Holy Quran; by studying the most prominent models in which there is a difference in the use of the letters of meanings. This study will require us first to define the letter, and then specify the properties of the letters of meanings, in addition to the definition of the concept of "similar verbal Quranic". It is certain that this study will not be a statistical survey of all the contents of the Holy Quran, but will be limited - as we have mentioned - to the most important models that caught the attention of scientists; both of them specialized in the study of the Koranic verbatim, or other grammarians and linguists and interpreters.

Key words: role;letters;meanings; direction ;similar;pronunciational;quranic; discourse.

مقدمة: إن من أهم الظواهر القرآنية التي تلفت انتباه الباحثين وعوام الناس على حد سواء ظاهرة التشابه اللفظي، ومعلوم أن الآيات المتشابهة لفظا لا تتطابق تماما، وإنما تختلف فيما بينها في بعض الأساليب حسب ما يقتضيه المقام؛ ومن

هذه الأساليب توظيف حروف المعاني، فكثيرا ما ترد آيات متشابهة لفظا ولا تختلف فيما بينها إلا في استعمال حروف المعاني. هذا، ولمّا بحثتُ عن سر هذا الاختلاف في توظيف حروف المعاني، ودورِها في توجيه معاني المتشابه اللفظي القرآني لاحظت قلة الدراسات المنجزة حول هذا الموضوع؛ فهي لا تشفي غليل الباحث، كلّ هذا دفعني وحفزني لاختيار هذا الموضوع محاولا الإجابة عن التساؤلات التالية:

– ما هو الحرف لغة واصطلاحا؟ وما أقسام الحروف في العربية؟ وما هي خصائص حروف المعاني؟ وما المقصود بالمتشابه اللفظي في القرآن الكريم؟ وما هو السر في الاختلاف في توظيف حروف المعاني في المتشابه اللفظي القرآني؟ وما هو دور هذه الحروف في توجيه معاني الآيات المتشابهة لفظا؟

كلُّ هذه التساؤلات وغيرها سنحاول الإجابة عنها من خلال هذا البحث.ومعلوم أن هذا الموضوع الذي سنعالجه في هذا البحث واسع ومتشعب؛ لذلك سنقتصر في هذه الدراسة على أبرز النماذج الواردة في القرآن الكريم لكل طائفة من حروف المعاني.

1– تعريف الحرف:

أ– **لغة:** يعرفه ابن منظور (ت 711ه) في لسان العرب تعريفا مفصلا؛ حيث يقول:«والحَرْفُ فِي الأَصل: الطَّرَفُ والجانِبُ، وَبِهِ سُمِّيَ الحَرْفُ مِنْ حُرُوفِ الهِجاء...، وحَرْفا الرأْس: شِقاه. وَحَرْفُ السَّفِينَةِ وَالْجَبَلِ: جَانِبُهُمَا، وَالْجَمْعُ أَحْرُفٌ وحُرُوفٌ وحِرَفَةٌ...، والحَرْفُ مِنَ الإِبل: النَّجِيبة الماضِيةُ الَّتِي أَنْضَتها الأَسفار، شُبِّهَتْ بِحَرْفِ السَّيْفِ فِي مَضَائِهَا وَنَجَائِهَا ودِقَّتها، وَقِيلَ: هِيَ الضّامِرةُ الصُّلْبَةُ، شُبِّهَتْ بِحَرْفِ الْجَبَلِ فِي شِدَّتها وصَلابتها، وَقَالَ ابْنُ سِيدَهْ: "فُلَانٌ عَلَى حَرْف مِنْ

أَمره"؛ أَي نَاحيَةٍ مِنْهُ، إِذَا رأَى شَيْئًا لَا يُعْجِبُهُ عَدَلَ عَنْهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾؛ أَي إِذَا لَمْ يرَ مَا يُحِبُّ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ، قِيلَ: "هُوَ أَن يَعْبُدَهُ عَلَى السرَّاء دُونَ الضرَّاء"، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: "عَلَى حَرْف"؛ أَي: "عَلَى شَكّ"...، وتَحْرِيفُ الكَلِمِ عَنْ مواضِعِه: تَغْيِيرُهُ. وَالتَّحْرِيفُ فِي الْقُرْآنِ وَالْكَلِمَةِ: تَغْيِيرُ الحرفِ عَنْ مَعْنَاهُ وَالْكَلِمَةُ عَنْ مَعْنَاهَا؛ وَهِيَ قَرِيبَةُ الشَّبَهِ، كَمَا كَانَتِ الْيَهُودُ تُغَيِّرُ مَعانيَ التَّوْرَاةِ بالأَشباه، فوصَفَهم اللَّهُ بِفِعْلِهِمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى:﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ﴾، وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ أَبي هُرَيْرَةَ: {آمَنْتُ بمُحَرِّفِ الْقُلُوبِ}؛ هُوَ المُزِيلُ: أَي مُمِيلُها ومُزيغُها، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: المُحَرِّكَ. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: {لَا يأْتون النِّسَاءَ إِلَّا عَلَى حَرْفٍ}؛ أي: على جنب». ويقول أيضا: « الحَرْفُ مِنْ حُروف الهِجاء مَعْرُوفٌ؛ وَاحِدُ حُرُوفِ التَّهَجِّي. والحَرْفُ: الأَداة الَّتِي تُسَمَّى الرابِطةَ؛ لأَنها تَرْبُطُ الاسمَ بِالِاسْمِ والفعلَ بِالْفِعْلِ؛ كَعَنْ وَعَلَى وَنَحْوِهِمَا...، وكلُّ كَلِمَةٍ تُقرأُ عَلَى الْوُجُوهِ مِنَ الْقُرْآنِ تُسَمَّى حَرْفاً، تَقُولُ: "هَذَا فِي حَرْف ابْنِ مَسْعُودٍ"؛ أَي فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ قال ابْنُ سِيدَهْ: "والحَرْفُ القِراءة الَّتِي تُقرأُ عَلَى أَوجُه، وَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: { نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُف كلُّها شافٍ كافٍ}؛ أَراد بالحرْفِ اللُّغَةَ"».[1]

فالحرف يُطلق في اللغة على عدة معان؛ أهمها:

* أصل معنى الحرف هو: الطرف والجانب والناحية.

* الحرف من الرأس: شِقُّه، ومن السفينة: جانبها، ومن الجبل: أعلاه المحدَّد، ومن الإبل: النجيبة الماضية التي أضنتها الأسفار.

* من معاني الحرف أيضا: الجهة، الشك، الزيغ، الميل، والعدول عن جادة الصواب.

* أما الفعل من هذا الأصل الثلاثي "ح ر ف" فتتعدد معانيه أيضا؛ فحَرَفَ عن الشيء يَحْرِف حَرْفا وانحرف وتحرّف واحرورروف: عدل عنه، وحَرَف لعياله: كسب، وحرَف الشيءَ عن وجهه: صرفه، وحرَف عينه حَرْفةً: كحلها، وأحرف ناقته: أهزلها.[2]

* وأما المصدر منه: "التحريف"؛ فهو التبديل والتغيير. وقد يُستعمل الحرف أيضا كمصطلح علمي، ويُقصد به:

أ- أحد حروف الهجاء.

ب- اللغة والقراءة.

ج- الأداة التي تُسمى الرابطة؛ لأنها تربط الاسم بالاسم، والفعل بالفعل.

ب- اصطلاحا: يعرفه أبو القاسم الزجاجي (ت339ه) بقوله: «الحرف: ما دل على معنى في غيره؛ نحو: "مِن، إلى، ثُم، وما أشبه ذلك؛ وشرحه: أنّ "مِن" تدخل في الكلام للتبعيض، فهي تدل على تبعيض غيرها، لا على تبعيض نفسها، وكذلك إذا كانت لابتداء الغاية: كانت غاية غيرها، وكذلك سائر وجوهها، وكذلك "إلى" تدل على المنتهى؛ فهي تدل على منتهى غيرها لا على منتهاها نفسها، وكذلك سائر حروف المعاني».[3] أما الفاكهي (ت353ه) فيعرّفهفي كتابه "شرح الحدود النحوية" بأنه: « كلمة دلت على معنى، ويدخل مع المحدود قسيماه، والقسيمان: هما الاسم والفعل، ثم خرج الفعل وبعض الأسماء بقولهم: "في غيرها"؛ أي بسبب انضمام غيرها إليها؛ من اسم ك "مررت بزيد"، أو فعل: ك "قد قام"، أو جملة كحروف النفي والاستفهام والشرط؛ فالحرف مشروط في دلالته على معناه الذي وُضع له ذكرُ متعلقه، وإن لم يُذكر متعلقه فلا دلالة له على شيء...».[4]

أما النحاة المحدثون فإنهم لم يضيفوا شيئا يُذكر لما قاله القدامى عن الحرف؛ يقول عباس حسن: « الحرف كلمة لا تدل على معنى في نفسها، وإنما تدل على معنى في غيرها –بعد وضعها في الجملة– دلالية خالية من الزمن»،[5] ويقول مصطفى الغلاييني:«وحرف المعنى: ما كان له معنى لا يظهر إلا إذا انتظم في الجملة؛ كحروف الجر، والاستفهام، والعطف، وغيرها».[6]

ج– التعريف المقترح للحرف: ينبغي للتعريف الاصطلاحي للحرف أن يستوفي شروطا هي:

1– أن يكون التعريف جامعا مانعا.

2– أن يكون التعريف دالا على ذات الحرف، لا على العلة التي وُضع لأجلها.

3– تجنب مواطن تداخل الحرف مع غيره من أقسام الكلم.

وعليه نقترح أن يكون التعريف الاصطلاحي للحرف أنه: "كلمة لا محل لها من الإعراب، لها معنى عام في نفسها في حالة الإفراد، يتحدد ويتوضح ويكتمل هذا المعنى في حالة التركيب؛ أي عند انتظامها في الجملة".

2– أقسام الحروف في العربية: تنقسم الحروف في العربية ثلاثة أقسام هي:

أ– حروف التهجي: ويسميها بعض العلماء الحروف المعجمية، وهي الأصل في كل الكلمات؛ فمنها تتكون كل الكلمات العربية، وهي أصوات أحادية منعزلة لا تدل على معنى، وتُسرد سردا: أ، ب، ت، ث،...

ب– الحروف التي هي أبعاض الكلمات: وهي حروفُ معانٍ صرفية؛ فهي تدل على معنى في الكلمة ذاتها دون سائر الكلام؛ كحروف المضارعة، وياء النسب، وتاء التأنيث، ونحوها.

ج- حروف المعاني: وهي التي تقترن بالأسماء والأفعال لمعان تدل عليها؛ مثل: "مِن، ولم، و ثُم"، ونحوها، وهي موضوع دراستنا. يقول الزجاجي (ت339ه): « الحروف ثلاثة أضرب؛ حروف المعجم التي هي مدار الألسن عربيها وعجميها، وحروف الأسماء والأفعال، والحروف التي هي أبعاضها؛ نحو: "العين" من جعفر و" الضاد" من "ضرب"، و ما أشبه ذلك».[7] وبعض العلماء يختصر هذا التقسيم فيجعل حروف العربية قسمين هما: أ- حروف المباني: وهي الحروف التي يتكون منها الكلام، وتضم حروف التهجي والحروف التي هي أبعاض الكلمات.

ب- حروف المعاني: وقد سبق تعريفها.

3- خصائص حروف المعاني: تتميز حروف المعاني عن قسيميها الاسم والفعل بمميزات منها:

- أنها مبنية كلها بخلاف الأسماء والأفعال فإنّ منها المبني ومنها المعرب؛ لأنها لا تحتاج في دلالتها على معانيها إلى إعراب؛ ففي قولنا مثلا: " زيد في الدار"، يُستفاد معنى الظرفية من لفظ "في" في حد ذاته دون حاجة إلى الإعراب.

- أنه لا يُخبر عنها و لا تكون خبرا بخلاف الاسم فإنه يُخبر عنه، والفعل فإنه يكون خبرا.

- أنه لا يتألف من الحرف مع مثله كلام، ولا مع الاسم وحده أو مع الفعل وحده كلام، بخلاف الاسم فإنه يتألف منه مع مثله كلام؛ نحو قولنا: " زيد شجاع"، ومنه مع الفعل كلام؛ ؛ نحو قولنا: " زيد ينطلق"، وبخلاف الفعل فإنه يتألف منه مع الاسم كلام؛ نحوقولنا: " جاء زيد".

- أنها لا تتصرف ولا يُشتق منها ولا تُثنّى ولا تُجمع.[8]

4- مفهوم المتشابه القرآني: ذكر علماء اللغة أن المتشابه يُطلق في اللغة على ما يلتبس ويتماثل من الأشياء؛ يقول ابن فارس (395هـ): «الشِّينُ وَالْبَاءُ وَالْهَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَشَابُهِ الشَّيْءِ وَتَشَاكُلِهِ لَوْنًا وَوَصْفًا؛ يُقَالُ شِبْهٌ وَشَبَهٌ وَشَبِيهٌ، وَالشَّبَهُ مِنَ الْجَوَاهِرِ: الَّذِي يُشْبِهُ الذَّهَبَ. وَالْمُشَبِّهَاتُ مِنَ الْأُمُورِ: الْمُشْكِلَاتُ. وَاشْتَبَهَ الْأَمْرَانِ إِذَا أَشْكَلَا»،[9] أما متشابه القرآن الكريم فهو على نوعين:

أ- المتشابه المعنوي: وهو الذي يقابل المُحكَم، وهذا النوع قد أثار جدلا واسعا بين العلماء لمعرفة كنهه وأسراره الخفية في القرآن الكريم؛ والمقصود به ما أُشكل فهمه والتبست معرفته، أو ما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه كالغيبيات وعلم الساعة، وقد تناوله الزركشي (ت 794ه) في كتابه "البرهان في علوم القرآن" في النوع السادس والثلاثين (معرفة المحكم من المتشابه)، كما تناوله السيوطي (911هـ) في "الإتقان في علوم القرآن" وفي "معترك الأقران في إعجاز القرآن"، وأبرز الكتب التي ركزت على دراسة هذا النوع من المتشابه: كتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة الدينوري (ت 276هـ)، و"حقائق التأويل في متشابه التنزيل" للشريف الرضي (406هـ)، و"متشابه القرآن" للقاضي عبد الجبار (415هـ).

ب- المتشابه اللفظي: والمراد به الآيات التي تكررت في القرآن الكريم بألفاظ متشابهة وأساليب مختلفة؛ من تقديم وتأخير، وذكر وحذف، وتعريف وتنكير، وإفراد وجمع، وإيجاز وإطناب، وإبدال حرف بحرف آخر، مع تقارب في المعنى لغرض ما؛ يقول الزركشي (ت 794هـ) في تعريف هذا النوع من المتشابه: «هُوَ إِيرَادُ الْقِصَّةِ الْوَاحِدَةِ فِي صُوَرٍ شَتَّى وَفَوَاصِلَ مُخْتَلِفَةٍ؛ وَيَكْثُرُ فِي إِيرَادِ الْقَصَصِ وَالْأَنْبَاءِ، وَحِكْمَتُهُ التَّصَرُّفُ فِي الْكَلَامِ، وَإِتْيَانُهُ عَلَى ضُرُوبٍ لِيُعْلِمَهُمْ عَجْزَهُمْ عَنْ

جَمِيعِ طُرُقِ ذَلِكَ؛ مُبْتَدَأً بِهِ وَمُتَكَرِّرًا»،[10] ويظهر من سياق كلام الزركشي أنه يريد بالقصة الموضوع مطلقا، ولا يقصد القصة القرآنية حصرا.

5- دور حروف المعاني في توجيه الآيات المتشابهة لفظا في الخطاب القرآني:

أ- حروف العطف:

1- بين الواو والفاء: تُعد الآيات التي تكررت في القرآن الكريم واختلفت فيما بينها في الواو والفاء أكثر من غيرها، سواء في حروف العطف نفسها، أو حتى في الحروف الأخرى، ولهذا بدأنا بها لكثرتها وغزارتها. وأول الآيات التي تعرض لنا قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[البقرة: 35]، فعُطف الأمر بالأكل على الأمر بالسكن في هذه الآية بالواو، بينما جاء العطف في آية الأعراف بالفاء دون الواو؛ يقول تعالى:﴿وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[الأعراف: 19]، ومعلوم أن الواو تفيد مطلق الجمع ولا تقتضي ترتيبا ما لم تقم على ذلك قرينة، أما الفاء فإنها تقتضي الترتيب والتعقيب، فما سرّ اختصاص هذه بالفاء وتلك بالواو مع أن القصة واحدة؟

بالرجوع إلى السياق الذي وردت فيه آية البقرة نلاحظ أن الكلام هناك عن آدم وزوجه – عليهما السلام- وهما مقيمان ومستقران في الجنة؛ فكلمة "أسكن" تعني في هذا الموضع الإقامة والاستقرار، وعلى هذا فإن المراد من الخطاب الموجه إليهما في هذه الآية الجمع بين الإقامة في الجنة والأكل من الثمار، ولو كان العطف بالفاء لتأخر الأكل إلى حين الفراغ من الإقامة؛ فإنّ من يدخل بستانا مثلا قد يأكل منه وإن كان مجتازا، فلم يتعلق المعطوف بالمعطوف عليه تعلق الجواب بالابتداء ولذلك عُطف بالواو؛ فالواو إذن تفيد تلبس المعطوف بالمعطوف عليه. أما آية الأعراف فإن سياق الحديث فيها عن آدم وزوجه –عليهما السلام- قبل دخول

الجنة؛ حيث أمرهما الله عز وجل بالدخول إلى الجنة بعد طرد إبليس منها، قال تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[الأعراف: 18- 19]؛ فلما كان المراد ب"السكن" في آية الأعراف مجرد الدخول واتخاذ الموضع سكنا جيء بالفاء؛ لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زمانا ممتدا ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل يقع الأكل عقيبه، فأفادت الفاء في هذا السياق تعلق الأكل بالدخول كتعلق الجزاء بالشرط.[11]

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أن الغاية من ذكر قصة آدم – عليه السلام- في سورة البقرة هي سرد أحداثها؛ وفي هذا السياق لا يهم الترتيب الزماني والمكاني، فجيء بالواو الدالة على مطلق الجمع، أما في سورة الأعراف فإن الغاية من ذكر القصة تعداد نعم الله عز وجل على آدم وذريته؛ ابتداء من تسخير الأرض لهم، وما يتبع ذلك من الخلق والتصوير، ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم، ثم طرد إبليس، ثم إنزال آدم ، ثم تأنيسه وتوصيته لذريته، فناسب هذا التفصيلَ والتعداد للنعم العطفُ بالفاء المقتضية للترتيب. كما أن سياق آية البقرة هو سياق الإخبار بتفضيل آدم -عليه السلام-، وتشريفه بالخلافة والعلم، وبيان ما أنعم الله تعالى عليه من الإقامة في الجنة والأكل من ثمارها، فجيء بالواو الدالة على الجمع بين السكنى والأكل، ولأجل هذا زيدت كلمة "رغدا" وحُذفت "من" الدالة على معنى التبعيض في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[البقرة: 35]؛ وذلك للدلالة على سعة التمتع بالإقامة في الجنة والأكل من ثمارها.[12]

2- بين "ثم" و"الفاء": أول آية تصادفنا في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام: 11]؛ فجاء العطف ب"ثم"، بينما جاء العطف في آيات مشابهة لها بالفاء؛ نحو قوله تعالى في سورة النحل:﴿فسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[النحل:36]؛ نلاحظ أن الآيات التي يكون العطف فيها بالفاء يأمر سبحانه فيها المخاطبين بأن يعقبوا سيرهم بالتدبر والاعتبار، فالسير إذن يؤدي إلى النظر فيقع بوقوعه، فجاءت الفاء الدالة على التعقيب في الجزاء، وفي هذا اتصال بين السير والنظر. أما آية الأنعام فجاء العطف فيها ب"ثم" الدالة على التراخي والتباعد الزمني بين السير والنظر؛ لأن ما تقدم الآية هو ذكر القرون السابقة وما وقع بها، ففيها حث على التدبر والاعتبار بما صنع الله سبحانه وتعالى بمنازل أهل الفساد في تلك البلاد المنتشرة في أنحاء الأرض، أمرهم سبحانه أن يستكثروا من ذلك ليروا آثارهم، وما حل بهم من دمار وخراب؛ حيث قال تعالى:﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[الأنعام: 6]؛ فهذه دعوة للسير في البلاد ومشاهدة الآثار، وهذا يستدعي أزمنة مديدة ومُددا طويلة تمنع ملاصقة النظر للسير، فثمة إذن تراخ ومهلة بين الفعلين، فجاء كل فعل منهما على حدة.[13] وبالإضافة إلى معنى التراخي الزمني الذي أفادته "ثم" في آية الأنعام فقد أفادت أيضا معنى التراخي الرتبي بين المباح؛ وهو: السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وبين الواجب وهو التدبر والاعتبار من خلال النظر في آثار الهالكين؛ يقول الزمخشري (ت538ه): «فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى:﴿ فَانْظُروا﴾ وبين قوله تعالى:﴿ ثُمَّ انْظُرُوا﴾؟ قلت: جعل النظر مسبَّباً عن

السير في قولهتعالى:﴿ فَانْظُرُوا﴾؛ فكأنه قيل: "سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين". وأما قوله تعالى:﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا﴾ فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح».[14]

3- بين الواو و ثم: من مواضع التشابه اللفظي التي اختلفت فيما بينها في توظيف هذين الحرفين؛ ما جاء من قوله تعالى في سورة الأعراف:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[الأعراف: 189]؛ حيث جاء العطف بالواو في قوله تعالى: "وجعل"، وفي سورة الزمر ورد العطف ب"ثم" فيقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[الزمر: 6]؛ إنّ أول ما نلاحظه اختلاف سياق الآيتين؛ فآية الأعراف جاءت في سياق ذم الشرك الذي يقع فيه بنو آدم، حيث قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ(191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا

يُبْصِرُونَ﴾[الأعراف: 190–198]، أما آية الزمر فقد جاءت في سياق الامتنان والإنعام على الجنس الآدمي، وبيان آيات الله الكونية المتعلقة بخلق هذا الكائن من نفس واحدة ثم خلق زوجها منها، قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[الزمر: 6]، ومعلوم أن الآية الأولى قد جعلها الله عز وجل عادة مستمرة في ذرية آدم –عليه السلام– بخلاف الآية الثانية؛ فإنها لم تجر بها العادة، فلم تُخلق أنثى من قصيرى رجل غير حواء–عليها السلام– ولأجل ذلك عُطفت على الآية الأولى ب"ثم"، للدلالة على مباينتها لها فضلا وتراخيها عنها في كونها أجلب لعجب السامع؛ فقد أفادت "ثم" هنا تراخيا في الحال والمنزلة، لا تراخيا في الوجود والزمن.

ولم يفرق الطاهر بن عاشور (ت1393هـ) بين سياق الآيتين، رغم تفطنه للمعنى الذي أفادته "ثم" في آية الزمر مستفيدا من الزمخشري (ت538هـ) الذي يُعد من أكثر المفسرين تفطنا للفروق الدقيقة بين حروف المعاني، يقول بن عاشور في تفسيره:«... إِلاَّ أَنَّ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ عُطِفَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿جَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾ بِحَرْفِ "ثُمَّ" الدَّالُّ عَلَى التَّرَاخِي الرُّتْبِي؛ لأَنَّ مَسَاقَهَا الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَإِبْطَالِ الشَّرِيكِ بِمَرَاتِبِهِ، فَكَانَ خَلْقُ آدَمَ دَلِيلاً عَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى، وَخَلْقُ زَوْجِهِ مِنْ نَفْسِهِ دَلِيلاً آخَرَ مُسْتَقِلُّ الدَّلَالَةِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، فَعُطِفَ بِحَرْفِ "ثُمَّ" الدَّالِّ فِي عَطْفِ الْجُمَلِ عَلَى التَّرَاخِي الرُّتْبِي إِشَارَةً إِلَى اسْتِقْلَالِ الْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفَةِ بِهَا بِالدَّلَالَةِ مِثْلَ الْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفَةِ هِيَ عَلَيْهَا، فَكَانَ خَلْقُ زَوْجِ آدَمَ مِنْهُ أَدَلَّ عَلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ وَمِنْ زَوْجِهَا؛ لِأَنَّهُ خَلْقٌ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَةٌ

،فَكَانَ ذَلِكَ الْخَلْقُ أَجْلَبُ لِعَجَبِ السَّامِعِ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، فَجِيءَ لَهُ بِحَرْفِ التَّرَاخِي الْمُسْتَعْمَلِ فِي تَرَاخِي الْمَنْزِلَةِ لَا فِي تَرَاخِي الزَّمَنِ؛ لِأَنَّ زَمَنَ خَلْقِ زَوْجِ آدَمَ سَابِقٌ عَلَى خَلْقِ النَّاسِ، فَأَمَّا آيَةُ الْأَعْرَافِ فَمَسَاقُهَا مَسَاقُ الِامْتِنَانِ عَلَى النَّاسِ بِنِعْمَةِ الْإِيجَادِ، فَذُكِرَ الْأَصْلَانِ لِلنَّاسِ مَعْطُوفًا أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ بِحَرْفِ التَّشْرِيكِ فِي الْحُكْمِ،فهما الكَوْنُ أَصْلًا لِخَلْقِ النَّاسِ»؛[15] فظاهرٌ أن سياق آية الأعراف– كما ذكرنا آنفا–هو ذم الشرك الحاصل من بني آدم، وليس الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد الذي هو سياق آية الزمر.

ب– حروف الجر:

1– بين "إلى" و"اللام": من مواضع الاختلاف بين هذه الحروف قوله تعالى في سورة لقمان:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[لقمان: 29]؛ حيث جاء التعبير بالحرف "إلى" الدال على انتهاء الغاية، وفي غيرها من الآيات جاء التعبير باللام؛ وهي ثلاثة مواضع في القرآن الكريم:

1–قوله تعالى في سورة الرعد:﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[الرعد: 2].

2– قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[فاطر: 13].

3– قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾[الزمر: 5].

نلاحظ أن الجو البياني الذي اكتنف آية لقمان هو الحديث عن الآخرة؛ وهي الغاية التي ينتهي إليها الخلق، قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[لقمان: 28– 34]؛ فناسب هذا السياقَ أن يؤتى ب"إلى" الدالة على معنى انتهاء الغاية، فيكون معنى الآية:" لا يزال كل من الشمس والقمر جاريا حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له". أما المواضع الأخرى التي ذُكرت فيها اللام؛ فقد ورد فيها الإخبار عن ابتداء الخلق وابتداء جري الكواكب كما جاء في آيتي الرعد والزمر، أما آية فاطر فاكتنفها ذكر نعم الله عز وجل المتعددة على بني آدم في البر والبحر؛ فالأجرام السماوية المذكورة في هذه الآيات تجري كي تدرك أجلا مسمى، فاللام هنا لام العلة.[16]

وقد خالف الزمخشري(ت538هـ) جمهور المفسرين واعتبر أن اللام للاختصاص وليست للتعليل؛ يقول في تفسيره: «فإن قلت: "يجرى لأجل مسمى"،

"ويجرى إلى أجل مسمى"؛ أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن، ولكن المعنيين: أعني الانتهاء والاختصاص، كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض؛ لأنّ قولك:"يجري إلى أجل مسمى" معناه: يبلغه وينتهي إليه. وقولك: "يجري لأجل مسمى" تريد: يجري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصا بإدراك أجل مسمى؛ ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة، وجري القمر مختص بآخر الشهر، فكلا المعنيين غير نابٍ به موضعُه».[17]

ومن الملاحظات الشكلية التي لا ينبغي إغفالها في هذا المقام؛ أنّ آية لقمان لمّا بُنيت على الطول ناسبها الحرف الأطول وهو "إلى"، أما الآيات الأخرى فبُنيت على الإيجاز فناسبها الجر باللام؛ ذلك أنّ آية لقمان قد تقدمها التنبيه على الاعتبار بها بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ...﴾[لقمان: 29]، ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ فجاء العطف بواو النسق المقتضية للجمع، فدخل هذا مع ما قبله تحت حكم التنبيه بقوله: "ألم تر"، وحكم التنبيه بالاعتبار ينسحب على المجموع للاشتراك في اللفظ والمعنى، فطال الكلام بحسب ما اقتضاه المقام، فناسب طولُه الجرَّ ب"إلى". ولمّا بُنيت الآيات الأخرى على إيجاز ليس في آية لقمان ناسبه الجر بالحرف الأقصر؛ وهو اللام.[18]

2- بين "اللام" و "مِن": من المواضع التي تشابهت لفظا واختلفت في استعمال الحرفين: قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة: 9]؛ فاُستعملت اللام، بينما اُستعملت في آية أخرى من سورة الفتح "مِن" الدالة على معنى التبعيض؛ قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح: 29]، والمرجع في استعمال الحرفين هو السياق؛ فالخطاب من بداية سورة المائدة موجّه إلى جميع

المؤمنين الصادقين في كل زمان وفي كل مكان، قال تعالى في بداية هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آَمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة: 1–2]، ثم قال تعالى بعدها:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[المائدة: 6]، وقال أيضا:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة: 8–9]، فهذه الآية عامة، ومعناها: " من آمن بالله وعمل صالحا فله مغفرة وأجر عظيم". أما آية الفتح فقد وردت في سياق مختلف عن سياق سورة المائدة؛ ذلك أن هذه الآية تصف أصحاب– النبي– عليه الصلاة والسلام– خاصة دون سواهم من المؤمنين، ومعلوم أنه كان من جملة من صحبه –عليه الصلاة والسلام– منافقون، فجيء ب"من" التبعيضية تمييزا وتفضيلا ونصا على الصادقين منهم دون الكاذبين،[19] ويُصدِّق ذلك أنه قد سبق هذه الآية ذكرُ المنافقين الذين كانوا مع النبي– عليه الصلاة والسلام–؛ قال تعالى:﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ

لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[الفتح: 11- 12]، وقال أيضا: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفتح: 15- 16].

ج- حروف النفي:

1- بين "لا" و"لن": إن أهم ما يلفت الانتباه في الآيات القرآنية المتشابهة لفظا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[البقرة: 95] باستعمال "لن"، وقوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[الجمعة: 7] فاُستعملت "لا"، فما سرُّ هذا الاختلاف؟ وما دور هذين الحرفين في توجيه معنى الآيتين؟

الخطاب في الآيتين تفنيد ودحض لادعاء اليهود الباطل، إلا أن هذا الادعاء أظلم وأطغى في آية البقرة؛ حيث زعموا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، قال تعالى:﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة: 94]؛ فالدعوة إذن بالغة قاطعة، ولهذا أُكد نفي ذلك ب"لن"؛ لأنها أبلغ في النفي من "لا"، وذلك لظهورها في الاستغراق. أما آية الجمعة فدعواهم فيها دون الأولى؛ فقد ادعوا ولاية الله عز وجل لهم، يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[الجمعة: 6]، ولا يلزم من ولاية الله تعالى لهم

اختصاصهم بالثواب والجنة، فاُقتصر على نفي الولاية ب"لا"، وفي كلتا الآيتين يُؤكد النفي بالتأبيد في قوله تعالى: ﴿ أبدا﴾، لكن النفي في آية البقرة أبلغ.[20]

ومن جهة أخرى نلاحظ أن آية البقرة جاءت في مقام الحديث عن الآخرة؛ قال تعالى:﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة: 94-96]، ولأجل ذلك جيء بالحرف الخاص بنفي الاستقبال وهو "لن"، أما آية الجمعة فالكلام فيها عام لا يختص بزمن دون زمن، قال تعالى:﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[الجمعة: 6]؛ فهذا أمر مطلق لا يتقيد بزمن معين، فنُفي بالحرف الذي يفيد الإطلاق والعموم وهو "لا".[21]

ومن الناحية الصوتية نلاحظ التناسب العجيب بين حرفي النفي والعبارتين اللتين وردا فيها؛ ففي آية الجمعة اقترن حرف الشرط بالفعل فصارت العبارة من صيغ العموم، وانسحب النفي فيها على جميع الأزمنة؛ فصار المعنى:"متى ما زعموا أنهم أولياء لله من دون الناس في أي وقت من الأوقات قيل لهم: تمنوا الموت إن كنتم صادقين"، فزعمهم هذا لا يختص بزمن معين، بل هو ممتد عبر جميع الأزمنة، فجيء في الجواب بما يناسبه في المعنى؛ وهو حرف "لا" الذي يمتد فيه الصوت ما لم يقطعه تضييق النفس، فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها؛ فمعنى النفي فيها يمتد كامتداد الصوت في نطقها. أما آية البقرة فإنَّ زعم اليهود فيها يختص بزمن معين وهو الاستقبال؛ حيث زعموا أن الدار الآخرة خالصة لهم من

دون الناس، فجيء في الجواب بـ"لن" التي تنفي الاستقبال، ولا يمتد معنى النفي فيها كامتداده في "لا"، وهذا ما يُوحي به نطقها؛ فإن الصوت فيها ينحبس ولا يمتد كامتداده في "لا".[22]

2- بين "إنْ" و"ما": ورد الاختلاف في استعمال هذين الحرفين في آيتين من سورة الأنعام والأحقاف؛ قال تعالى في سورة الأنعام:﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[الأنعام: 25]، وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[الأحقاف: 17].

من المعلوم في العربية أنّ "إنْ" أشد في النفي من "ما"؛ يقول فاضل صالح السامرائي في سياق حديثه عن "إنْ" النافية:«وهي آكد من "ما"؛ يدل على ذلك اقترانها الكثير بـــ "إلا" وهذا يعطيها قوة وتأكيدًا، فإنّ في القصر قوة؛ وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [إبراهيم: 10]، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: 44]. وذهب بعضهم أنها لا تأتي إلا وبعدها "إلاّ" أو "لمَّا" المشددة التي بمعناها، كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4] ،والصواب أنها قد تأتي بدونها...وليست "ما" ولا غيرها من حروف النفي كذلك، فدلّ هذا على قوتها في النفي. ومما يدل على ذلك أيضا الاستعمال القرآني؛فإنه يستعمل "إنْ" فيما فيه زيادة توكيد في النفي»،[23] ونلاحظ تبعا لذلك أنّ النفي في آية الأنعام آكد منه في آية الأحقاف، يدل على ذلك السياق؛ فمِمَّا جاء من صفات المكذبين في آية الأنعام ولم يأت نظيره في آية الأحقاف:

1- "وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ".

2- "وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا".

3- كما أنهم:"إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا".

فدرجة التكذيب في آية الأنعام أشد منها في آية الأحقاف؛ لأن الصفات التي تستدعي قوة التكذيب والإنكار كانت في المكذبين الأولين أشد وأكثر، ولأجل هذا أُكِّد النفي فيها ب"إنْ" بخلاف الثانية.

خاتمة: أهم النتائج والتوصيات المتوصل إليها من خلال هذا البحث:

1- لاحظنا قلة الدراسات المنجزة حول توجيه معاني المتشابه اللفظي للقرآن الكريم، ولاسيما ما يتعلق منها بحروف المعاني، لذلك توجَّب على الباحثين في مجال الدراسات اللغوية عامة والقرآنية خاصة أن يسُدوا هذه الثغرة التي يعاني منها الدرس اللغوي العربي.

2- إنّ الآيات القرآنية التي اُختصت بحروف دون غيرها، وفي مواضع دون أخرى، كان ذلك لحكمة إلهية بالغة، وإعجاز بياني بليغ، فلا يمكن لحرف آخر أن يحل محله، أو يقوم بوظيفته ويؤدي معناه.

3- لقد كان لعلماء العربية من نحاة وبلاغيين ومفسرين الجهد المضني في دراستهم لحروف المعاني؛ وذلك لدرايتهم أنها من المباحث المهمة والخطيرة في الدرس اللغوي، لاسيما إذا تعلق الأمر بالقرآن الكريم.

4- يُعد السياق العامل الرئيسي المؤثِّر في اختيار حروف المعاني المناسبة للآيات المتشابهة لفظا في القرآن الكريم.

5- لاحظنا تفاوت حروف المعاني فيما بينها في تأدية المعنى الواحد؛ ف"إنْ" مثلا أشد في النفي من "ما"، والمرجع في معرفة ذلك كيفيةُ استعمال الحروف في التركيب اللغوي العربي.

6- لا يعتبر تكرار الكلام عيبا ولا عِيًّا في لسان العرب ما دام لحكمة يقتضيها المقام؛ فها هو القرآن الكريم قد كرر قصص أنبياء كُثر، كما كرر ذكر الجنة والنار وغيرهما؛ لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، ومستوى التلقي يختلف من أمة لأخرى؛ فيبسط الكلام لأمة ويوجزه لأخرى حسب قوة عقولهم وبديهتهم، وسرعة امتثالهم وقبولهم.

الهوامش:

[1]- ابن منظور محمد بن كرم، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هشام الشاذلي، دار المعارف: القاهرة، 1401- 1981، ط: 1، ج: 2، ص: 838، 839.

[2]- ينظر: الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح: نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1426- 2005، ط: 8، ص: 799.

[3]- أبو القاسم الزجاجي عبد الرحمان بن إسحاق، الإيضاح في علل النحو، تح: مازن المبارك، دار النفائس: بيروت، 1406- 1986، ط: 5، ص: 54.

[4]- الفاكهي جمال الدين بن عبد الله، شرح الحدود النحوية، تح: صالح العائد، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، (د، ط- د، ت)، ص: 271.

[5]- عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف: القاهرة، 1394- 1974، (د، ط)، ص: 68.

[6]- مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، دار ابن الجوزي، القاهرة، 1429- 2009، ط: 1، ص: 610.

[7]- أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، ص: 54.

[8]- ينظر: عبد الله حسن عبد الله، حروف المعاني بين الأداء اللغوي والوظيفة النحوية، مخطوط رسالة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة جنوب إفرقيا، نوفمبر 2010، ص: 24.

[9]– أحمد بن فارس أبو الحسن، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر: بيروت، 1399– 1979، ط: 2، ص: 243.

[10]– بدر الدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1957، ط: 1، ص: 112.

[11]– ينظر: الخطيب الإسكافي محمد بن عبد الله الأصبهاني، درة التنزيل وغرة التأويل، تح: محمد مصطفى آيدين، منشورات جامعة أم القرى: مكة المكرمة، 1422– 2001، ط: 1، ج: 1، ص: 222– 224.

[12]– ينظر: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، تح: عبد الغني الفاسي، دار الكتب العلمية: بيروت، (د، ط– د، ت)، ص: 28، 29. محمد بن إبراهيم بدر الدين بن جماعة الأنصاري، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تح: عبد الجواد خلف، دار الوفاء: المنصورة– مصر، 1410– 1990، ط: 1، ص: 92.

[13]– ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل: 2/ 490– 491.

[14]– محمود بن عمرو الزمخشري، تفسير الكشاف، دار الكتاب العربي: بيروت، 1407– 1987، ط: 3، ج: 2، ص: 8.

[15]– محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1404– 1984، (د، ط)، ج: 23، ص: 331، وينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف: 4/ 113– 114.

[16]– ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 1056– 1057.

[17]– الزمخشري، تفسير الكشاف: 3/ 502.

[18]– ينظر: ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 403.

[19]– ينظر: المصدر نفسه: 1/ 120.

[20]– ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 266– 267.

[21]– ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار الفكر: عمّان– الأردن، 1420– 2000، ط: 1، ج: 3، ص: 369.

[22]– عبد الرحمن بن عبد الله أبو القاسم السهيلي، نتائج الفكر في النحو، تح: محمد البنا، دار الرياض: السعودية، 1404– 1984، (د، ط)، ص: 131، 132.

[23]– فاضل صالح السامرائي، معاني النحو: 4/ 200– 201.